كل هذه الوجوه لا أعرفها

د.منال الدغار

في صمت سرت عاريًا و بين يدىّ أكفانى، تسللت نسمة باردة فى ذلك الصباح الباكر إلى جسدى الذي لا يغطيه إلا أقل القليل، وتحولت إلى رجفة قاسية تجاهلتها وأنا أنحنى ببطء وأتمدد على الرصيف وقد أغلقت عينىّ. تدريجيًا أحسست بأصوات غريبة حولى، أحسست فجأة وكأن الحياة من حولي تصرخ، أبواق وسيارات وبشر يعدون هنا وهناك، كنت أتأمل ما حولى من بين جفنىّ المسدلين وأنا أشعر أن الزمان قد توقف بى فى مكانى هذا، داهمنى شعور قاتل بالخوف؛ من هؤلاء؟ لِمَ يسرعون من حولي هكذا؟ لِمَ يسرعون من حولي هكذا؟ لِمَ لا يتوقفون لحظه؟ ما هذا؟ وحش غريب يراقبنى..

انتفضت جالسًا والذعر يهزنى، وأنا أشاهد عينيه القاسيتين وهو يتقدم نحوي، يتقدم ويتقدم، وأنا عاجزعن الحركة، لأننى ميت! فى سكرة الاحتضار الأخيرة، أحسست بيد تمسك ساعدي وبآلة حادة تمر

على الشريان الأزرق الصغير، وفجأة.. تتدفق الدماء، المزيد والمزيد، وتغطي الكفن الأبيض وترسم خريطة حياتي. تملكني شعور غريب بالنشوة واللذة والألم، وأنا أرى الدماء تتفجر وتتفجر، وتلطخ الثوب الأبيض، كدت أضحك عاليًا، ضحكة ترسبت مرارتها على أنفاسي لولا أننى فجأة.. ما عدت أرى ما حولي..

لماذا حاولت الانتحار؟ أتسمعنى؟ لماذا حاولت الانتحار؟

أحسست بدوار مؤلم يلف رأسى وأنا أحاول أن أربط الصوت الذى أسمعه بالصورة الهاربة من أمامي، كنت أرى جسدًا أمامي لرجل ليس له وجه، بل لمحات تختفي وتجىء. عجباً! لقد سرق أحدهم وجه هذا الرجل، يجب أن ألفت انتباهه إلى ذلك، وقبل أن أفعل وجدته يعطيني ظهره ويتناول مقعدًا ليأتى بجانبي ويجلس، يا للعجب! لقد جاء بوجه معه، لا بدّ أنه كان قناعًا موضوعًا على المقعد.

تستطيع أن تعتبرني صديقك، تستطيع أن تثق بي وتخبرني لماذا حاولت الانتحار؟

أحسست بجفافٍ قاتلٍ في حلقي، وأنا أحرك لساني بصعوبة وأقول: الانتحار؟ عن ماذا تتكلم؟ لقد قتلني.. قتلني أمام كل الناس.. إنني ميت.

من الذي قتلك؟

قابيل.. لقد قتلني قابيل.. قتلني ثانية.. قتلني للمرة الألف، بعد أن كنت قد هربت منه عبر العصور وتخفيت منه في الحياة، كنت في كل مرة أعدو وأعدو في الحياة، أعيش وأتبسم وأتعلم، حتى يصلني نداءه، فأعلم أنه عثر عليّ، عبثًا عندها أواصل الهروب، كنت أقاوم، كنت أصارع الموت، لكن شيئًا كالسحر الأسود كان يشدني إليه، وأستلقي مستسلمًا ليديه وهما تنتزعان الحياة مني..

لماذا ذهبت إلى الميدان اليوم؟ عاريًا؟ من قابيل هذا؟ أهو أحد منافسيك فى العمل؟

صدقني لم أكن أريد الذهاب إليه، ولكنه هددني، إما حياتي أو حياة من أحب، كان دائمًا يقتلنى ببطء ويقف ليشاهد احتضاري أمام عينيه ثم يذهب، يذهب بعيدًا.. لمكان لم تستطع عيناي الكليلتان أبدًا

أن تعرفه، كثيرًا ما سألت نفسى: أأستطيع إن عرفت ذلك المكان أن أسرع إليه وأقتله قبل أن يقتلنى؟ لم أعرف أبدًا إجابة ذلك السؤال، دائمًا ما يغزوني ضعفٌ غريب يعطل حواسي ويمنعني من الإجابة.

أخبرنى ما هو عملك؟ هل أنت متزوج؟ أين أسرتك؟

ثم تأتي لحظة ميلادي.. وكما أغادر الحياة ضعيفًا، آتيها ضعيفًا، وحيدًا.. شعور قاسٍ.. خانق.. مؤلم، يشبه شعور تغيير الجلد، عندما تضيق الشرنقة حول الحشرة فيكون عليها أن تحرك جسدها بحركة مؤلمة خانقة حتى تستطيع أن تعيش قبل أن تخنقها الشرنقة، وتأتي لحظة الضوء.. تنكسر القيود.. وأطير كالفراشة حرًّا في أفق واسع أزرق وأبيض، أظل أخفق بجناحي وأخفق، ولا تسكن حركتي أبدًا، أجوب الدنيا صغيرًا أو كبيرًا.. طويلًا أو قصيرًا.. أحِب وأحَب.. أحزن وأعدو.. حتى يصلني النداء الملعون..

أعرف أنك متعب، لكنني أريدك أن تحاول التركيز قليلًا، أخبرني هل تواجه أيّة صعوبات مادية؟

كنت أعتقد في كل مرة أن ذلك النداء هو عقاب لي، لأنني ارتكبت خطأً ما، ربما لأنني آذيت أحدًا، فكنت أحاول أن أطهر نفسي في كل حياة جديدة، بالحب، بالأمل، بالعطاء.. كنت أعتقد أنه يكفي أن أكون طيّبًا فلا يلاحقنى ذلك المجرم الآثم، ولكن يا للعجب.. كلما شعرت بنفسي تصفو والنقاء يملأني يعاودني ذلك النداء بأسرع ما يكون..

هل تشاجرت مع أحد؟ هل هجرتك زوجتك؟ أو مات أحد أقاربك؟

وكان أصعب ما في الحياة كل مرة هو البداية.. كنت أنظر حولي فأرى وجوهًا غريبة لا أعرفها، فأسير وأسير وفي سيري أنزع الأقنعة واحدًا وراء الآخر، كنت كلما اكتشفت قناعًا أحاول أن أنزعه، و كان يؤلمني كالشوك، ولكن ما كان يؤلمني أكثر ما أراه تحت القناع، أحيانًا كنت أصل لإنسان بلا قناع، أو تغطيه فقط قشرة خارجية من واقعية وصلابة وإيمان، عندها فقط كنت أشعر أنني قد وصلت إلى مرادي من

الحياة، كنت أمد إليه يدي وفي عينيّ دعوة تغطيها دمعة تترقرق في سعادة وأمل، وأنا أشعر أنني اخيرًا قد وجدت وجهًا أعرفه.

لا فائدة منك، إنك تتعمد أن تدّعي الجنون.

لكن أتدري ما الذى يثير دهشتي؟ إنه في كل مرة بعد أن يقتلني، وبينما روحى تصعد ببطء لتودع حياتي، فإذا بي أراه ينحني عليّ، ويهز جسدي الميت ويسألني بهيستيريا ودموعه تتساقط: ماذا أفعل الآن؟ ماذا أفعل الآن؟

لا فائدة من الحديث معك حقًا، سأعود إليك لاحقًا.. بعد أن ترتاح.

سيعود إليّ، بعد أن أرتاح..

رأيته ينهض ويعطينى ظهره كي يعيد المقعد مكانه، اتسعت عيناي فى ذعر وقد أدركت من يكون، إنه هو.. عدوي الملعون، قابيل.. لقد تبعني إلى هنا، يريد أن يقضي عليّ وأنا في هذا الضعف، يريد أن ينتزع مني ثانية وجهي الذي أعرفه..

تلفّتُّ حولي بسرعة فى جنون يائس، فوجدت منضدة عليها أدوات جراحية وبكل ما يعطيه اليأس من قوة تناولت مقصًا حادًا وأغمدته في ظهره، وأخذت أضرب وأضرب، مع كل ضربة كنت أرى وجهًا حبيبًا أخذه مني.. يبتسم لي.. وعندما تناثرت الدماء على ملابسي وجدت فيها لأول مرة رسمًا لحياتي بدون النداء الملعون.. وفجأة! سمعت أصواتًا عديدة حولى، وصرخات: لقد قتل الطبيب..

وأحاط بي أناس كثيرون وشلوا حركتي، وكان لهم جميعًا وجوهًا لا أعرفها.. سقط السلاح من يدي، ورفعتها لا شعوريًا على وجهي أمسح جبيني وأنا اشعر بالتعب والخوف، نعم.. الخوف والغربة وقد فقدت الوجه الوحيد الذي أعرفه.. وجه عدوي اللدود.. وبينما هم يقتادونني بعيدًا مررنا على مرآة وحدقت فيها وجدته.. قابيل.. إنَّه فيها! إنَّه لم يمت، لقد أصبح يعيش بداخلي. غطيت أذنيّ بقوة حتى لا أسمع صوت الضحكة الشريرة الهازئة وهي تتصاعد مني..